قصة قصيرة

سمكة بحرية عارية ...

بديعة أمين

لم يكن يـــدري لِمَ كان يتملكه ذلك الشعـــور الغريب . والشيء الاكثر غرابة انه لم يكـن يعرف تماما ماهية ذلك الشعور . غير انه في لحظات يخيل له أحيانا انها لحظات تستقطبها قوة تقع خارج نطـــاق ارادته . يحس كما لو كان يعاني من مرض غريب الاعراض ، يولد لديه شعورا متعمقا بالعري .

كان يتحسس ملابسه مثلما يفعـــل أعمى يتلمس الطريق . وما ان تغادر راحتا يديه بدلته ، بعد أن تتأكدا انها هناك تنسدل بأبهة عـــلى ما كان يسميه « هيكلا عظميا » وهو يمازح زوجته بحجمها الذي يتجاوز كثيرا حدود الطبيعة ، حتى تعودا لتتحسساها مـن جديد . وقبل أن يغادر البيت صار كثيرا ما يطيل الوقوف أمام المرآة ، يتفحص بامعان الشخص الآخر الذي يقف قبالته مزهوا يبتسم له باعجاب . واذ يقتنـــع ان كل شيء على ما يرام ، يدير لها ظهره .. يسير خطوتين أو ثلاثا .. ويتوقف فجأة .. يفكـــر .. يستدير الى المرآة مـن جديد .. ويعود يتطلع الى كل جزء من ملابس الشخص الآخر والوجه الذي يعود فيبتسم له من جديد .. ولو لم يكن ملزما بتقديم ما أنجز للطبع في وقت معين ، فان الوقت الذي يستطيع أن يقضيه أمـــام المرآة ، يمكن بسهولة أن ينزلق من حساب زماننا .

في البدء كان يبذل جهدا فوق طاقته وهو يحاول أن يتجنب أنظار زوجته حين تشتد عليـــه وطأة ذلك المرض فتسمره أمام المرآة . غير ان تكرر النوبات بوتائر متعاظمة ، جعل ذلك في حكـم المستحيل ، حتى بات وقوفه أمام المرآة وتطلعه فيها على مرأى من زوجته أمرا اعتياديا .

كانت زوجته تحسّ بابتئاس حقيقي حين تشهـد تلك الظاهرة . ومما كان يزيدها حزنا انه لم يكن يستطيع أن يقدم أي سبب معقول يبرر فيه وقفاته الطويلة تلك .. والامر الاكثر اثارة للاستغراب ان هـذا التطور اللافت للنظر في سلوكه كـــان يزداد تجليا مع ما كانت تظنه تصاعدا في نشاطاته الذهنيـــة التي كانت تتشكل في مخلوقات فكرية عجيبة متباينة الاشكال والالوان . كانت زوجته تنظر اليه بذهول وهو يمارس طقـوسه اليومية أمام المرآة ، فيما كان قلق مستبد يسكـن أعماقها .. أهناك اخرى ؟ كيف نستطيع كشف ما هو خبيء ؟ هل تجاوز نقطة اللاعودة . أم ان ثمة أملا في انها قد تكون على خطأ ؟ لو حطمت المرآة .. فهل سيعود الى حالته الطبيعية ؟ ستتحمل كلّ شيء حتى غضبه حين يكتشف الامر .. ولكن العاصفة ستمر .. ويعود كل شيء الـى هدوئه المعتاد .. ويعود هو انسانا سويا مثلما كان قبل عهد ليس ببعيد . غير ان توقعـــاتها جاءت على غير ما تريد . فقبل أن تهدأ العاصفة غـــادر البيت . كان الخوف والندم يمزقانها . الا انه عـــاد بعد قليل وقد جاء بمرآة جديدة أكبر مساحة من الاولى .

حين جاءت المرآة الجـــديدة ، أيقنت الزوجة ان زوجها لم يكن بعيدا عن حالة اضطراب نفسي . وكـان ذلك يزيدها خوفا وشكوكا . الا انها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا أكثر من محاولة التسلل الى منطقة القلب في صدر زوجها لعلها تكتشف ما يطفيء هواجسها .

كانت ترقبه بعينين تلوب فيهمـا دمعة حبيسة ، وهو يتأمل الشخص الآخر الـذي يطل مزهوا من أعماق المرآة . وفجأة انطلق من بين شفتيه صوت يحمل في ثناياه ما يفصح عن شعـــور بالقرف حين لاحظ أعلى الصدر وقرب الرئة اليسرى شيئـا أبيض بدا له كعظم نافر من هيكل عظمي لسمكة بحرية .. اقتربت الزوجة مرتبكة وهي تسأل :

ـ ما بك ؟ ماذا حدث ؟

ـ لا شيء .. لا أدري ما هذا ..

قال ذلك وقد استقرت عنـــد الجبهة وما بين الحاجبين تقطيبة رصينة فيما كانت يده ترتفع مشيرة الى ذلك الشيء بتردد . دنت الزوجة منه وقد اعتصرها خوف حقيقي :

ـ ولكنها قشة .. قشة بيضاء !!

ـ قشة ؟

ـ أجلْ .. قشة .. قشة بيضاء ..

مدت الزوجة يدها وانتزعت القشة البيضاء ورفعتها أمام عينيه . وسرعان ما انطلقت مـــن صدره ضحكة ارتياح صاخبة ، فيما كـــان هاجس قلق يسوح في جوانبها . واذ راح يحدق في المرآة من جديد ، بدا مفكرا وقد عادت تقطيبته الى مواقعها عند الجبهة ومـا بين الحاجبين .. وفجأة بادرها :

ـ لو قلت لك : سمكة بحرية عارية .. ماذا يخطر ببالك ؟

كان السؤال غير متوقع ومريبا تماما . انتفضت مثل عصفور عصفت بعشه ريح شرقية . لم تجب وانما ظلت تحملق في وجهه بجزع وهي تبحث عـن شيء مـا تحت الجلد .. أعاد السؤال ثانية :

ـ لو قلت لك : سمكة بحرية عارية .. ماذا يخطر ببالك ؟ هه ؟

ـ أتصرّ على أن أجيب ؟ أهذا يهمك كثيرا ؟
ـ أجل .. أجل .. ماذا يخطر ببالك ؟
ـ ولكن لِمَ تسألني سؤالا غريبا كهذا .. وهل ترتدي الاسماك ملابس حتى تتعرى واحدة منها ؟
ـ لا يهم .. ماذا يخطر ببالك ؟ هيا .. قولي !..

بدأت الزوجة المسكينة تفكر لحظات .. ثم ببطء :
ـ عيون مستديرة بلا أجفان .. هيكل عظمي خاو .. أو عظام شوكية تتفرع متوازية من عظم هزيل يمتد ما بين قحف الرأس وذنب مشقوق نصفين .. فم مفتوح كالهوة يلتهم أسماكا صغيرة ما أن تنحدر عبر البلعوم حتى ...

وتوقفت فجأة وكأنها تذكرت شيئا منسيا .. تذكرت انها لا تحب رسوم سلفادور دالي .

ظلال خفيفة العتمة كانت ترتسم على وجه الزوج وهو يتأمل خيال زوجته .. بقي صامتا فترة .. وفجأة .. وبفرح من يكتشف جزيرة مغمورة في البحر :
ـ فكرة رائعة .. سمكة بحرية عارية .. تبدأ حياتها كباقي السمك في الماء .. وفي أحد الايام .. وبعد أن تنمو تكتشف امكانياتها ...

كان الخوف يتفتح في أعماقها مثل شجيرة حنظل. ولم تستطع أن تبتلع سؤالا كان يعصف برأسها .. ولكن بدلا من أن تسأل وجدت نفسها تناقش وتقيم حوارا ..
ـ ولكن أية امكانيات تستطيع أن تمتلك سمكة ؟ انها أغبى الحيوانات المائية فيما أظن .. أليس كذلك ؟
ـ لا عليك .. انه مجرد خيال .. ولنقل خيالا سرياليا ..

وتنشط في البحر.. تلاحق السمكات الصغيرة.. تلتهم منها ما تستطيع .. ولكن كثيرا من الاسماك الصغيرة كان يهرب .. وتظل السمكة البحرية تبحث عن مواقع أخرى .

وحين تذكره الزوجة ان الوقت يمضي سريعا وانه قد يتأخر عن الدوام .. يمضي الزوج مرددا :
ـ لا عليك .. لا عليك .. ويحملها الموج .. ويلقي بها المد في قنوات تخترق المدينة .. وفي القنوات والفجوات المائية شبه الراكدة تكتشف أنواعا غريبة من المخلوقات والاسماك الصغيرة والطيور المائية .. ويتصاعد نشاطها .. ولكن القنوات المائية لا تلائمها تماما .. فتنتفض قشورها شيئا فشيئا .. ويتهرأ لحمها فتصبح عارية .. عارية تماما .. أما الاسماك الصغيرة التي كانت تبتلعها فكانت تعود الى الماء .
ـ ولكن كيف ؟ هذا أمر لا يمكن تصوره . الا تستطيع السمكة الكبيرة أن تستمد من السمكات الصغيرة التي تلتهمها عناصر مقوية فتزيد من مقاومتها ضد التقشر والمرض ؟
ـ لا .. لا أبدا .. أنسيت انها عارية لا بطن لها ؟ انها في محيط غير محيطها .. كان يجب أن تظل في البحر قبل أن تصبح عيونا مستديرة تبحث بلا أجفان.. عظما هزيلا .. عظاما شوكية متوازية .. وفما مفتوحا يلتهم كل ما يحمله التيار .. ولكنها لا تشعر بما آلت اليه حالها .. فهي لا تستطيع أن ترى نفسها .. اذ أن حركتها الدائبة لا تسمح للماء أن يعكس صورتها .
ـ ولكن هذا شيء غير معقول .. غير معقول أبدا .
ـ لا بأس .. لا بأس .. انها فكرة رائعة ..

ويضحك بحماسة فتزول التقطيبة الرصينة من جبهته وما بين الحاجبين .. ويردد بفرح :
ـ فكرة رائعة .. سمكة بحرية تتعرى في قنوات المدينة .. فكرة رائعة . رائعة ..

وكرر ذلك مرتين أخريين وهو يتطلع كالمأخوذ في المرآة .. ثم :
ـ أتعلمين كم تساوي ؟
ـ أي شيء يساوي كم ؟ تساءلت الزوجة باستغراب .
ـ القصة .. قصة السمكة التي تتعرى في قنوات المدينة .

ويرين في الجو صمت وجل . لم تعد راغبة في الكلام . ولكنه ألحّ قائلا :
ـ هه .. ألا تدرين كم تساوي ؟

قالت أخيرا بهدوء يبطنه قلق اختنق في صدرها :
ـ كلا فالناس لا يشترون أسماكا بلا لحوم .

وترن في الجو ضحكة غير منتظرة :
ـ أتدرين ؟! لقد أيقنت الآن ان النساء لا يفهمن شيئا .

وبشيء من الغضب ، قالت :
ـ أي شيء لا أفهمه ؟ أن تبيع هيكلا عظميا لسمكة بحرية ذات عيون مستديرة بلا أجفان ؟.. أتريدني أن أفهم هذا ؟!
ـ ولم لا ؟
ـ أمن أجل هذا عممت الغباء على النساء ؟ حتى طلبة الطب ان اشتروا هياكل عظمية ، فهي لسلالة آدم !
ـ انك لا تفهمين يا عزيزتي .. أقسم بالله انك لا تفهمين .
ـ حسنا .. ان كنت لا أفهم .. فأنا لن أدفع شيئا لبضاعة كهذه ..
ـ وأنا أستطيع أن أبيعها بـ ...

وقبل أن يتم عبارته ، قاطعته الزوجة :
ـ أتمنى لك النجاح .

قالت ذلك باقتضاب .. فيما كان هو يتطلع في المرآة ويداه تتحسسان بدلته الانيقة !

بغداد